الفصـــل الاول
حقوق الإنسان عبر التاريخ

لا غرو أن الإنسان أنانى بطبعه ، فطر على صبر نفسه ، وتفضيل ذاته ، كما فطر على حب العدوان على غيره ، ومن ثم لم يكن فى البدء نظره إلى الحقوق أو احترام الحقوق .

وقصة ولدى آدم[1] فى فجر التاريخ قصة تمثل العدوان على الحقوق .

إنه كان لابد لوجود النوع الإنسانى ، بعد وجود آدم وحواء ، من تزاوج بين الأبناء والبنات وإذ مَنّ الله على حواء بميلاد ذكر وأنثى مع كل حمل ، فقد نظم الأمر على أن يتزوج الولد من البنت التى تأتى مع الذكر الآخر .

لكن قابيل أراد الخروج على هذا القانون أو هذا العرف .. واحتكما إلى القربان[2] فأكلت النار قربان أخيه – دليل القبول – ولم تأكل قربانه ، فهدده « لأقتلنك » ﴿ **قال**

---

(١)،(٢) راجع القصة مع تفسير قوله تعالى : ﴿ **واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق** ﴾ « المائدة ٢٧ – ٣١ » بالتفاسير المختلفة .

إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين . إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين . من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً . ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون ﴾[1] .

وكان هذا أول عدوان على أول الحقوق وأعلاها .. كان العدوان على الدماء التى جعلتها وثيقة الإسلام أولى الحرمات وأوْلاها بالصيانة والاحترام !

ومرت البشرية فى طورها الأول .. طور طفولتها – إن صح التعبير – تعرف العدوان أكثر مما تعرف الحق ، وتحترم « القوة » أكثر مما تحترم « الحرمة » .

وكانت الرسالات تُردُّ الناس إلى الحق ، وتعلم الناس الحق ﴿ **أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يُتبع أمّن لا يَهِدِّى إلا إن يُهدى فما لكم كيف تحكمون** ﴾[2] ، ومع طول العهد بالرسالات ..

---

(١) سورة المائدة الآية : ٢٧ – ٣٢ .

(٢) سورة يونس الآية : ٣٥ .

كانت قسوة القلوب ، وما يلى ذلك من عدوان على الحقوق ﴿ **ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** ﴾[1] حتى جاءت رسالة خاتم الرسل والمرسلين .. والإنسانية فى ظلمات بعضها فوق بعض ، يفتك القوى بالضعيف ، ويأكل القادر حقوق العاجز .. والناس يتداعى حكماؤهم وأولو الشرف فيهم لوقف نزيف الدم ونزيف الحقوق حتى عرف العرب فى جاهليتهم حلف الفضول ..[2] أن ينصروا المظلوم ويقفوا معه حتى يأخذ حقه من الظالم ، وذلك الحلف الذى قال فيه رسول الله ﷺ لو دعيت إليه فى الإسلام لأجبته !

وأشرق الإسلام وقد أشرف ظلام اليأس أن يأخذ بمجامع النفوس ، واشتاقت أن ترى فجر الحق يرعى لها تلك الحرمات ..

وارتفعت كلمات رسول الله ﷺ تعلم وتربى وتشرع « المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »[3] ، وإن لحرمة المؤمن أعظم عند الله من حرمة بيته المحرم[4] .

وأخيراً ارتفعت كلمات رسول الله ﷺ يوم حجة الوداع : « إن دماءكم ، وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » .

---

(١) سورة الحديد الآية ١٦ .

(٢) ابن هشام . السيرة النبوية الجزء الأول ص ١٣٣ .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه ابن ماجه .

وارتفعت بعدها صيحاتنا « حرمات لا حقوق » .

ونحب أن ننوه هنا أن تقسيم التاريخ إلى مراحل .. طفولة وشباب ، ورجولة أو كهولة .. تقسم ظالم .. ذلك أن التاريخ فى حقيقته ليس كائناً حياً أو كالكائن الحى .. ومن ثم فلا يلزم أن نلزمه بأطوار الكائن الحى .. إنما حقيقته أنه يتردد بين الصعود والهبوط .. فهو يصعد مع الرسالات السماوية – وهى لم تنقطع يوماً قبل رسالة محمد عليه الصلاة والسلام – ثم يهبط مرة أخرى مع البعد عن الرسالة .. فهو فى القمة مع الإيمان بالرسالة ، وهو فى السفح مع البعد عن الرسالة .. ومن ثم فهو رسم بيانى يعلو ويهبط ، وحتى من بعد الرسالة الخاتمة رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

فكلما أقبل أفراد الأمة الإسلامية على دينهم واستمسكوا .. بلغوا القمة أو كادوا ، وكلما بعدوا عن دينهم هبطوا إلى السفح أو ما دون السفح !

والواقع التاريخى يؤكد ذلك ففى فترة رسالة الرسول ﷺ وفى فترات الخلافة الراشدة .. كانت الأمة تبلغ القمة أو كادت ، وفى فترات البعد والملك العضوض هبطت الأمة إلى السفح أو كادت .. حتى بلغت اليوم الدرك الأسفل الذى لم تبلغه يوماً .. بعداً ، وتفككاً ، وامتهاناً .. !

وكذلك الشأن فى الفترات السابقة على الرسالة المحمدية !

والذين يقسمون تاريخ البشرية .. بمراحل حياة الإنسان

أو الكائن الحى ، ينسون أو يتناسون تاريخ الرسالات السماوية ، وهو تاريخ ثابت مؤكد ، وإيمان المؤمنين .. وكفر الجاحدين فيها ثابت .

وبقدر الإيمان تعلو الإنسانية وتزكو وتعرف حقوقها .

وبقدر الكفر والبعد عن الرسالة ترتد إلى حيوانيتها ووحشيتها وبعدها عن التحضر والتمدين .

والميراث الحديث لحقوق الإنسان ليس جهداً بشرياً محضاً .. إن التوفيق العلمى المنصف فيه . يبصر أثر الرسالات السماوية فى كل سمو بلغته البشرية .

ولا أنفى ما قرره البعض من أن كلمة الفليسوف الفرنسى « جان جاك روسو » التى صاغها فى نظرية العقد الاجتماعى Contrat Social فى القرن الثامن عشر إنما كانت تأثراً بكلمة عمر بن الخطاب رضى الله عنه التى أطلقها فى القرن السادس « مُذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

ذلك أن التقارب بين القولين كبير ، فضلا عن أن الوجود الإسلامى فى حوض البحر الأبيض وفى جنوب أوربا ، والتأثر العلمى الواضح بحضارة الإسلام كل ذلك من المسلمات اليوم !

لذلك سوف نعرض لما تردد فى الفلسفات المختلفة بغض النظر عن مدى تأثرها بالديانات المختلفة ، إذ كثيراً ما يصعب إثبات هذا التأثر .

حقوق الإنسان فى الفلسفات

الفلسفة اليونانية :

عرفت قبل الميلاد ، والمقصود ميلاد المسيح ، لكن كان قبل المسيح أنبياء ، ومن ثم فلا يستبعد أن يكون ثمة تأثر بما كان فى رسالات هؤلاء الأنبياء والمرسلين ، خاصة وأن الجميع جاء بالإسلام : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾(آل عمران ١٩) ﴿ **ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفا مسلماً وما كان من المشركين** ﴾(آل عمران ٦٧) .

أيا كان الوضع . فقد شاعت فكرة انتقلت بعد ذلك إلى القانون الرومانى فكرة القانون الطبيعى[١] وهى فكرة قريبة من فكرة « الفطرة» .

ومع ذلك فقد قيل عنه تعريفات ، نحسب أنها مستمدة أو على الأقل متأثرة بالديانات السماوية .

قيل عنه أنه يكاد أن يكون هو « إرادة الآلهة » !

وقيل عنه إنه القانون الأخلاقى الصادر عن«إرادة الآلهة » !

---

(١) هوجمت الفكرة من المفكرين المحدثين مثل بسكال Pascalوهوجو Hugot الفرنسيين وعارضها الفقهاء الألمان والمدرسة التاريخية ومن أساتذتها سافينى .

وقيل عنه إنه قانون ثابت لا يتغير يعتبر المثل الأعلى الذى يجب أن ينسج على منواله قوانين المجتمع ، لأنه قائم على مبادىء لم تؤخذ من تقاليدمتواضع عليها ولا من قواعد محدودة فى كتاب (بل مصدره الطبيعة ويكشفه العقل من روح المساواة والعدل الكائنة فى النفس) .

وقيل إنه مجموعة القواعد الأبدية السرمدية السائدة .

فى القرن الثالث عشر الميلادى :

شاعت فكرة العدالة Justice وهى تتفوق على مبادىء القانون العادى السائد Common Law أو القانون الحرفى Strict Law يرشد إليها الضمير والوجدان Conscience وأيا كان الأمر .. فإن فكرة العدالة .. فكرة نابعة من الأديان .

﴿ ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ [1] .

وهو أمر متكرر فى كل الأديان !

ومن ثم فالفكرة ليست بعيدة كذلك عن التأثر بالأديان .

---

(١) سورة النحل الآية ٩٠ .

فكرة العقد الاجتماعى
فى القرن الثامن عشر

فكرة العقد الاجتماعى تقوم على افتراض .. أن الأفراد لم يكونوا فى مجتمع .. وكانوا أحراراً ، فلما انتقلوا إلى حياة المجتمع تنازلوا عن جزء من حرياتهم ليدخلوا فى عقد اجتماعى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية .

مع اختلافات بسيطة فى التفاصيل لا تغير من جوهر الأمر شيئاً .

ومن أشهر القائلين بالفكرة :

جون لوك (١٧٠٤) – وهو بريطانى .

جان جاك روسو (١٧٧٠) – وهو سويسرى .

وأيا كان الأمر .. فإن التأثر واضح بقولة عمر بن الخطاب[١] (مُذ كم تعبدتم الناس يا عمرو وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .. ؟

وليس المجال هنا مجال إثبات تاريخى ، فلذلك مظانه ومراجعه – والله أعلم .

---

(١) فتوح مصر والمغرب – ابن عبد الحكم – تحقيق عبد المنعم عامر – القسم التاريخى – القاهرة سنة ١٩٦١ ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .